

الشيعة والتصوف

في بلاد التوبة

محمد فاضل السقلابي

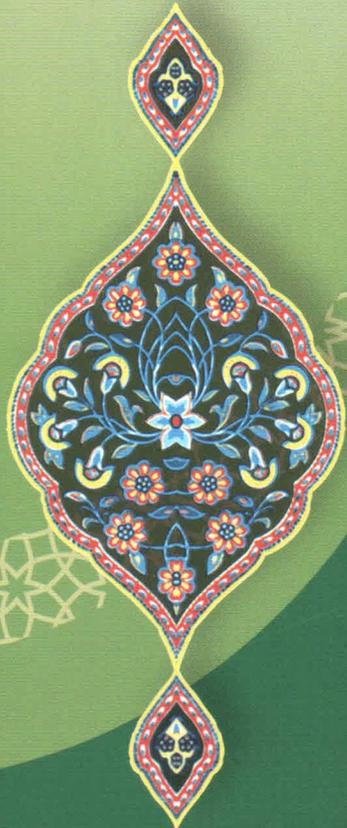
تحقيق

فضيلة الشيخ

أ. د. ناصر بن عبد الكريم لعقل

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية



ح دارابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

التقلاوي، محمد فاضل

الشيعة والتصوف في بلاد النوبة. / محمد فاضل التقلاوي،

ناصر عبد الكريم العقل - الدمام، ١٤٣٦هـ.

٤٨ ص: ٢٠١٤م

ردمك: ٤٩-٠-٨٠٦-٦٠٣-٩٧٨

٢- التصوف

١- الشيعة

أ- العنوان

١٤٣٦/٨٧٠

ديوي ٢٦٠

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٩٧٧٠

ردمك: ٤٩-٠-٨٠٦-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٧هـ

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٣٧هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب
أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي
نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استخراج الكتاب أو ترجمته
إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.



دارابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية، الدمام - طريق الملك فهد - ت: ٨٢١٨١٤ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص: ب: ٢٩٥٧

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٣ - الرقم الإضافي: ٨٤٠٦ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جسول: ٥٠٣٨٥٧٩٨٨ - الإحصاء: ت: ٥٨٣١٢٢ - جدة: ت: ٢٨١٣٧٠٦ - بيسروت

هاتف: ٠٣/٨١٩٦٠ - فاكس: ٠١/٤٤١٨٠١ - القاهرة: ج م ع - محمول: ١٠٠٦٨٢٣٧٣٨

تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠ - الإسكندرية - ٠١٠٦٩٠٥٧٧٣ - البريد الإلكتروني:

aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

المحمد بن ربيع: فقد زفنا إلى النا الشيخ الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل سبى
قيام مركز الوسطية للاستشارات التربوية والتعليمية الذي يرحم
أمره بكونه مركزا علميا تربويا يركز على نشر الدعوة والميراث على تنبج
الكتاب والسنة فبرحم منه كافة المسلمين ودعم هذا المركز
بما يحسنه أهدافه ليواصل عطاءه المحمدي - إنه شاء الله .

عملا بقول الله تعالى: (وتعاونوا على البر والتقوى) فالمسلمون بحاجة
إلى قيام مثل هذا المركز خصوصاً في هذا الوقت الذي تكالب فيه أعداء
الإسلام على الإلتهام والعدوان والصدع عن سبيل الله (ليطفقوا
نور الله بأفواههم واللاتم نوره ولو كره الكافرون) والله لا يخلف وعده
وأخيراً فإننا نتقدم لهذا المركز تحمينا ما أسس منه أجله
ونسأل الله أن يوفق القائمين عليه لما فيه الخير والصلاح
للمسلمين والسلمية . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه

كتبه
صالح بن فوزان الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء
صلى
١٤٢٩ / ٦ / ١١

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

أقدم للقراء الكرام هذا البحث القيم عن الشيعة والتصوف في بلاد النوبة للشيخ الجليل / محمد فاضل التقلابي، وقد فوضني بنشره، فنشرته أولاً في مجلة كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الخامس عام ١٤٠٣هـ - ١٤٠٤هـ من ص ٣٧٣ - ٣٩٤.

وفي هذه الطبعة يتم نشره من قبل مركز ثوابتنا للاستشارات التربوية والتعليمية.

نسأل الله أن ينفع به ويجزي مؤلفه خير الجزاء وأحسنه.

ناصر بن عبدالكريم العقل

١٤٣٣/٤/٧هـ

المقدمة

✽ الحمد لله نعمده ونستعين به ونتوكل عليه ولا حول ولا قوة إلا به، ونشكره تعالى على نعمة الإسلام الصحيح القاطع النابع من كتاب الله تعالى، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن هدي الصادق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ.

|| أما بعد:

فإن هذه عجالة يسيرة وفذلكة تاريخية مقتضبة، بل قد تكون رؤوس مواضيع تحتاج إلى البحث العلمي المركز، قد نستجيب له في مقبل الأيام إن عشنا، وربما قيض الله له من يوفيه حقه حتى يضع الحقائق المجردة من مصادرها الثابتة في مقابل الترهات الباطلة، التي زحفت متلصصة في ظلام دامس على الإسلام وانتشرت باسمه وهو بريء منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب، ونسأل الله التوفيق وأن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم، لا نقصد به سوى أداء الأمانة العلمية وإصلاح الحال الذي تردى إلى أعماق الهاوية السحيقة حتى أصبح

الإسلام الحقيقي غريبا بين الخرافات والسخافات والبدع
والانحرافات الباطلة. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي
العظيم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التصوف

كُتب اسم طراً على الإسلام في العصر العباسي، أطلق على جماعة جعلت من لبس الصوف الخشن والزهد في الدنيا والانقطاع للعبادة والرهبانية، عزوفاً عن النساء، مع عمل قليل يسد الحاجة من السؤال، والاستغناء عن المأوى والالتجاء إلى المساجد. فإذا منعوا افترشوا الأرض على الشوارع أو الأزقة، وقد يهيم بعضهم في الصحارى أو من بلدة إلى بلدة داعين إلى الزهد والتخلص من الدنيا ومباهجها. ويغلب على وعظهم الأقاويص المنفرة من أعباء الحياة الدنيا الحاضرة على ذكر الله .

وقد جعلوا من خشونة العيش وخشونة الملابس شعاراً لهم، ولما كان الملابس هو الظاهر البادي للعيان، وكان من الصوف الخشن، فقد أطلق عليهم اسم المتصوفة كما أطلق على منهجهم الذي التزموه التصوف باعتبار ملابسهم المنظور.

وقيل: التصوف مأخوذ من الصفاء لصفاء قلوبهم وحسن سيرهم وسماحة أخلاقهم، وهذا قول مردود لأن صفا يصفو مصدره صفاء لا تصوفاً، وتصفى يتصفى مصدره تصفية لا تصوف. وقيل إنها نحلة تاريخية لا تنصرف إلى

الاشتقاقات الصرفية، وإنما يرجع بها لشعار القوم في مبدأ أمرهم، والاستحسانات العقلية هنا تزييف مقصود للتاريخ يدل على عدم الأمانة العلمية .

|| وفي العصر العباسي نفسه بعد أن ترجمت الفلسفة اليونانية والرومانية من الغرب والفلسفة الفارسية والهندية والصينية من الشرق، تأثر بذلك عدد كبير من العرب، وأبناء الفرس وعلى الخصوص بالمانوية الفارسية، واندسوا وسط المتصوفة ومضوا يلوون عنق الآيات والأحاديث لتواكب نحلهم الفلسفية، في وحدة الوجود، أو تناسخ الأرواح، أو الحلول. فأنحرفوا بالتصوف الأول إلى فلسفة تنافي الإسلام وتعارض نصوصه الواضحة، وصار التصوف بدلا من البدعة المذمومة كقرآ بواحا، برهنت عليه كتب ابن العربي، وأشعار ابن الفارض، وشطحات عبد الكريم الجيلي، وغيرهم من فلاسفة المتصوفة.

|| وانبرى لهؤلاء الغزالي يرد على الفلاسفة في كتابه تهافت الفلاسفة، وراح يدعم المنهج الأول المبتدع في كتابه المشهور «إحياء علوم الدين»، وتوالت الردود عليهم من علماء السنة المحمدية حتى بان مقصدهم وانكشف أمرهم وما عاد مذهبهم ينظلي على عاقل له علم ودراية وفهم.

وما تعرض أحد للأوائل الذين ابتدعوا المنهج إلا تعرضا خفيفا لا يكاد يبين، فما هو إلا الزهد والعبادة والرهبانية التي ابتدعوها وما كتبت عليهم، وصح أن الرسول ﷺ قال: «لا رهبانية في الإسلام»^(١).

وقد سمعت أحد مشايخنا رحمته الله يكرر مرارا في مناسبات متفرقة أن الابتداء الأول قد حدث في حياة رسول الله ﷺ، وكان يروي الحديث الصحيح الذي يدل على أن جماعة من الصحابة ذهبوا إلى حجرات أمهات المؤمنين يسألون عن عبادة رسول الله ﷺ. فلما قرّ في أذهانهم جهده رجعوا إلى أنفسهم قائلين كيف وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فما حالنا بجانبه؟! وتعاهدوا أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يقربوا النساء، ولما علم الرسول ﷺ بأمرهم أمرهم بإحضارهم وسألهم عما بلغه عنهم، فأجابوا بالإيجاب، فرد هذا الحدث في حزم صارم ونهي بليغ، إذ قال ما معناه: «إني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتي النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٢). وكان شيخنا رحمته الله يعقب على

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بنحوه (٦/ ٢٢٦)، والدارمي في سنته بمعناه في كتاب النكاح (٢/ ١٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب النكاح (٦/ ١١٦)، ومسلم في كتاب النكاح (٢/ ١٠٢٠ ح ١٤٠١) كلاهما من حديث أنس بمعناه.

ذلك قائلاً: إذن هؤلاء ليسوا على هدى الرسول ﷺ. وكان يُعزى إلى بعض الأئمة قوله: «من أحدث حدثاً في الدين يظنه صواباً فقد زعم أن محمداً خان الرسالة»^(١)، وكان يقول إن الإسلام قد كمل وتم كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة، الآية: ٣].

فلا حاجة للاستحسان في الدين، ولا رهبانية في الإسلام، والإسلام دين وعمل ودولة ولا مكان فيه لمن يؤمن ببعضه ويكفر بالبعض الآخر. وإنني لأعتقد جازماً أن شيخنا لم يجنح عن الصواب فيما قال إطلاقاً.

وجاء بعد الفئة المتسللة المتفلسفة الجانحة فئة ثالثة من الجهلة والغوغاء، والرعاغ والعامّة البسطاء الجهلة، فاتخذوا من التصوف مهنة للعيش وأكل أموال الناس بالباطل، وورث الأبناء جهل آبائهم، وراحوا يخرعون الأذكار المحرفة والرايات المزركشة والطبول والمزامير والأناشيد الموقعة، في معان تعج بالمبالغات المبتذلة

(١) يُنسب هذا القول للإمام مالك رحمته الله، ولفظه (من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون اليوم ديناً). انظر: الإبداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ ص ١٠٨.

والإطراء المتغالي والتوسلات التي لا يقرها شرع الله المحكم، واتخذوا للأموات أعيادًا يتذكرون فيها الخرافات الباطلة والحكايات الخيالية السخيفة التي تدل على الاستهانة بالعقول، وتروج إلى استعباد الناس وقيادتهم وتعطيل عقولهم، مثل قولهم: «إذا كنت عند أهل العلم فاحفظ لسانك وإذا كنت في حضرة أهل الباطل فاحفظ قلبك». ويقولون الذي لا يحفظ لسانه عند أهل الظاهر يرمى بالجهل وهو عار، والذي لا يحفظ قلبه من الإنكار على أهل الباطل يسلب من الإيمان ويموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله. فكأن الناس خلقوا ليكونوا مقلدين لأنصاف العلماء وهم أشرم من الجهلاء، أو خلقوا ليكونوا عبيدًا لهذه الفئة من البلهاء المدعين وأسوأ استعمار هو استعمار العقول والقلوب والأفكار.

﴿﴾ وهذه الفئة الثالثة هي التي تهيمن على العامة والغوغاء والرعاغ من الناس في واقعنا اليوم بسبب الجهل المطبق بالدين وبسبب دعمهم من أنصاف المتعلمين. وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول ما معناه: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً من صدور الرجال ولكن يقبض العلم بموت العلماء فيتخذ الناس رؤساء جهالاً فيستفتون فيفتون بغير

علم»^(١). وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول في بعض روايات هذا الحديث المشهور: «بدأ الإسلام غربيا وسيعود غربيا كما بدأ، فطوبى للغرباء». قيل: ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: «الذين يمسكون بكتاب الله حين يترك، ويعملون بالسنة حين تطفى، وإن الدين ليأرز بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها، وإن الدين ليعقلن في الحجاز معقل الأودية من رأس الجبل»^(٢).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

-
- (١) أخرجه البخاري في كتاب العلم (٣٤ / ١)، وكذا مسلم في العلم (٢٠٥٨ / ٤) ح (٢٦٧٣) كلاهما من حديث عبد الله بن عمرو بنحوه.
- (٢) أخرج بعضه الإمام مسلم من حديث ابن عمر بلفظ: «إن الإسلام بدأ غربيا وسيعود غربيا كما بدأ وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في جحرها» الإيمان (١ / ١٣١) ح (١٤٦)، وأخرجه الترمذي بنحوه في الإيمان ١٢٩ / ٤ ح (٢٧٦٥)، وأخرجه ابن ماجه إلى قوله: «فطوبى للغرباء» ١٣٢٠ / ٢ ح (٣٩٨٧). وأخرجه نحوه الإمام أحمد في مسنده (٧٤-٧٣ / ٤).

كيف ومتى دخل التصوف بلاد النوبة؟

✽ قبل الإجابة على هذا السؤال لا بد أن نعرض باختصار شديد المذهب الشيعي في السودان؛ لأنه الأصل الذي بني عليه إسلام المسلمين فيه، وما دام الأمر كذلك يصبح من الضروري اللازم أن نتحدث عن المذهب الشيعي كتوطئة للإجابة عن السؤال الذي عقدنا الباب له. ولأن التصوف كما قالوا: «هو الابن غير الشرعي للمذهب الشيعي والمذهب الشيعي هو الابن غير الشرعي للدين الإسلامي».

كـ دخل العرب إلى هذه البلاد رعاة في القرن الأول الهجري، في عهد إمارة عبد الله بن أبي سرح الأموي في خلافة الإمام عثمان بن عفان رضي الله عنه، ومما يدل على ذلك المعاهدة التي سجلها التاريخ بين ابن أبي سرح وبين ملك النوبة، ولم يكن لهم شأن يذكر في الدعوة للإسلام، غير أننا نجد في المعاهدة إشارة إلى مساجدهم والمحافظة عليها. وسار الحال على ذلك تدفع ممالك النوبة المسيحية الثلاث، «البقط» وهو الجزية كل عام إلى أمير مصر حتى جاءت الدولة الفاطمية في سنة ٣٥٨هـ إلى سنة ٥٦٨هـ.

بدأ عهد جديد بين النوبة من جانب وبين الفاطميين من جانب آخر وكانت المعاهدة بين الجانبين قد نصت بأن يتعاونوا ولا يتحاربا إطلاقاً، وأن تفتح البلاد المصرية أمام النوبة وأن تفتح بلاد النوبة أمام المسلمين، وأن تحترم كنائس مصر ومعتقداتهم في مصر وأن تحترم مساجد المسلمين ومعتقداتهم في النوبة، وأن يتبادلا التجارة، وأن يعاون المسلمون النوبة في الحرب على أعدائهم، وأن يعاون النوبة في الحرب الفاطميين على من يحاربهم. إلى غير ذلك من البنود التي تضمنها العهد الموقع من الجانبين.

وأهم بند آخرنا ذكره لخطورة محتواه وهو أن يسمح النوبة للدعاة من علماء الشيعة بدخول بلادهم للدعوة لهم، وقد دخل الدعاة حتى إن أحدهم - كما يذكر المؤرخون - دعا الملك النوبي في حفل حضره كل القسس والرهبان النصراني في بلاط صاحب الجلالة الملك، وقد وفق في مجادلتهم، ولكنهم لم يسلموا ولم يذكر التاريخ الأثر الذي تركه هذا الداعية على الملك ورجال الكنيسة، وإنما ذكر أن المسلمين من عرب وعامة من شعب النوبة كانوا مسلمين على المذهب الشيعي، وأن الإسلام انتشر على المذهب الشيعي في ممالك النوبة، حتى أن الخلفاء الفاطميين جعلوا اعتمادهم

الكلبي على النوبة، فكان الجيش وقواده، بل مؤتمن الخلافة وحاشية الخليفة كانوا من النوبة حتى آخر خلافة الفاطميين، حيث قضى عليها صلاح الدين الأيوبي وهزم النوبة في موقعة القصر المشهورة، وهرب بقية الجيش إلى بطن الحجر ثم إلى بلاد النوبة بأزواجهم وأولادهم وناصروا الأيوبيين العداء.

ولما أصبح في النوبة الجمهور الغالب من الشيعة المسلمين استولوا على الملك في مملكة النوبة السفلى، وهي أكبر الممالك، ثم في الوسطى، وأخيراً في العليا، وهي مملكة سوبا المسيحية التي تقع قريباً من الخرطوم الآن.

ومن هنا نعلم على حسب ما جاء في مراجع التاريخ أن الإسلام دخل السودان إسلاماً شيعياً خالصاً، وإليك المراجع التي تجد فيها الحديث عن الدولة الفاطمية والعصر الذهبي للنوبة في ظلها، وأنه لم تقم قط حرب بين النوبة وبين الفاطميين إطلاقاً حتى سقطت دولتهم على يد صلاح الدين الأيوبي، وأن قبيلة ربيعة العربية قد صاهرت ملوك النوبة، وكان مقامها في منطقة أسوان المصرية إلى بطن الحجر وحتى دنقلا وما حولها للرعاة منهم، وأنهم قد أصبحوا شيعة للفاطميين وقلدوا إمارة المنطقة.

ولما حارب أبو ركوة الأموي الفاطميين وهزم في الموقعة الفاصلة وتشتت جيشه، دخل بلاد النوبة خفية ولاذ بدير للنصارى، وتتبعته ربيعة في ظل أميرها وقبضت عليه حيا وقدم للخليفة فأعدمه، ومنح الأمير لقب كنز الدولة حتى أصبح اليوم أبناؤه وأحفاده وما خلفوا قبيلة مشتقة من ربيعة ممزوجة بالدماء النوبية يطلق عليهم اليوم «الكنوز».

كعود إلى المراجع فأذكرها فيما يلي:

- ١- تاريخ اليعقوبي المتوفى سنة ٨٩٣. نشره «يونسو» في بيروت عام ١٣٧٩هـ / ١٩٦٠م.
- ٢- فتوح البلدان للبلاذري المتوفى سنة ٩١٢، طبع في ليدن سنة ١٨٦٦.
- ٣- تاريخ الرسل والملوك للطبري المتوفى سنة ٩٢٣ طبع في ليدن سنة ١٨٧٩ و١٩٠١.
- ٤- نظم الجواهر «تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية المصرية»، لابن البطريق المتوفى سنة ٩٣٩ طبع في أكسفورد سنة ١٦٥٨ و١٦٥٩.
- ٥- صورة الأرض، لابن حوقل المتوفى حوالي سنة ٩٧٠ طبع في بيروت «نشرة يونسكو».
- ٦- مروج الذهب ومعادن الجواهر، للمسعودي المتوفى سنة ٩٥٣، طبع في باريس عام ١٨٦١ و١٨٧٧.

- ٧- أخبار النوبة والبجة والنيل، للأسواني، «غير مطبوع» ولكن توجد منه مقتطفات في كتاب الخطط للمقريزي .
- ٨- تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، لساويرس بن المقفع، طبع سنة ١٩٠٤ و١٩١٤م.
- ٩- نزهة المشتاق للإدريسي المتوفى حوالي ١١٦٠، طبعة مدققة صادرة عن المعهد الجامعي الشرقي بنابلي «إيطاليا» سنة ١٩٧٢.
- ١٠- الكامل لابن الأثير، المتوفى عام ١٢٣٤، «١٤ مجلد» طبع في ليدن ١٨٥١ و١٨١٦م.
- ١١- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، لأبي شامة المتوفى عام ١٢٦٦، طبع في القاهرة سنة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م.
- ١٢- تاريخ المسلمين، لألمكين بن العميد المتوفى عام ١٢٧٤، طبع في ليدن عام ١٦٢٥م.
- ١٣- تقويم البلدان لأبي الفداء المتوفى ١٣٣١، «أربع مجلدات»، طبعه: م. رينو في باريس عام ١٨٤٠ و١٨٤٣م.
- ١٤- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، للعمري المتوفى عام ١٣٤٩، طبع في القاهرة عام ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م.
- ١٥- كتاب العبر، لابن خلدون المتوفى عام ١٤٠٦م طبع في مطبعة بولاق القاهرة عام ١٢٨٤ / ١٨٦٧م.

١٦- كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار،
للمقرئزي المتوفى عام ١٤٤٠، «٣ مجلدات»، طبعة ج. فيت
في القاهرة عام ١٩١١ و١٩٢٧م.

١٧- كتاب السلوك لمعرفة الدول والملوك، طبعة محمد
مصطفى زيادة «٣ أجزاء» في عام ١٩٣٤ و١٩٦٩م.

١٨- النجوم الظاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لأبي
المحاسن القرئزي المتوفى عام ١٤٦٤، طبع في لندن عام
١٨٨٢.

١٩- المكتبة السودانية العربية، حققها وكتب حواشيها
الدكتور مصطفى محمد مسعد، طبع في القاهرة عام ١٩٧٠.

٢٠- طبقات، ودضيف الله المتوفى عام ١٧٠٩، حققه
وعلق عليه الدكتور يوسف فضل حسن، طبع في الخرطوم عام
١٩٧١.

﴿١﴾ إن المطلع الصبور سيقف على ما أجملناه في هذه
المصادر من الحقائق التي لا تقبل الجدل بحال من الأحوال
عند الحديث عن ممالك النوبة والدولة الفاطمية، وتاريخ
دخول العرب إلى السودان. وما يختصر في مرجع تراه مفصلاً
في غيره، وما يشار إليه إشارة عابرة في مرجع تراه في إطناب في
مرجع آخر.

إن هذه المقدمة المختصرة قبل الإجابة على السؤال المطروح في العنوان رأيتها ضرورية لابد منها، من أجل زعم بعض الكتاب أن المسلمين في السودان كانوا سنيين قبل أن يدهمهم التصوف، وهذا ما يدحضه التاريخ، ويثبت في جلاء أن المسلمين في السودان قبل أن يرد عليهم التصوف إنما كانوا شيعة في العقيدة، ومالكيين في العبادة، وتجدر الإشارة للآتي لأنه مهم جدًا:

إن الجامعة الأزهرية في القاهرة إنما أنشأها الفاطميون لتكون مكانا لتدريس المذهب الشيعي، ولتخريج الدعاة المؤهلين للتشيع، ولقد أدت رسالتها كاملة في العصر الفاطمي حتى قضى عليها صلاح الدين الأيوبي وحول الجامعة الأزهرية إلى جامعة سنية، وجعل رئاستها لعالم يختار من المذهب الشافعي، لأنه كان على هذا المذهب، ولما كان علماء الشيعة يرون التقية واجبة في المآزق الحرجة والمدلهمات، وقد تمرسوا على ذلك حتى صار لازمة لهم، وهم يستدلون على ذلك بأن بيعة علي عليه السلام للشيخين وعثمان عليه السلام إنما كانت للتقية، وكتبهم زاخرة بذلك، فقد انصرف علماء الشيعة في الأزهر في ذلك الزمان إلى المذهب المالكي، وادعوا أنهم مالكيون، وتحت ستار هذا المذهب راحوا يدسون

العقائد الشيعية، ومن أجل ذلك ترى الفارق الشاسع بين المؤلفات المالكية بعد هذا التحول وقبله ولا تخطئ عين الباحث الجاد الواعي في المتون والشراح والحواشي عقائد الشيعة، بل والتعصب الذي يتميز به الشيعة في بعض العبادات كالسدل وغيره. ومن أجل ذلك نقول بثقة تامة إن السودان كان شيعياً اعتقاداً وعبادة قبل أن يدخل عليه التصوف، ومن يشك في ذلك فعليه بالمراجع حتى يتبين له الحق في جلاء ساطع، وما التوفيق إلا من عند الله والله وحده المستعان .

ﷻ إني أرى بعد هذه التوطئة الضرورية أن أجب على السؤال الذي بوبت له ملتزماً في الإجابة الاختصار الشديد جداً، فما هي إلا عجالة مضغوطة تلقي ضوءاً كاشفاً للمثقف المستنير، فتحته على البحث والرجوع إلى المراجع فيروي منها ظمأه حيث تتكشف أمام بصره وبصيرته الحقائق الدامغة التي يقف عندها مذهولاً مأخوذاً، لأن الحقائق الراسخة مع مقارنتها بواقع اليوم المعيش تبدو أعجب من الخيال الجانح، الذي يراه العقل ضرباً من الهوس أو نوعاً من المستحيل. وليجرب الباحث المثقف ليرى صدق ما رأيناه، فالحقائق لا تعرف بالتقليد الأعمى ولا تدرك بالأشخاص مهما يكن الأشخاص، وإنما تعرف الحقائق بالبراهين الساطعة والأدلة

الدامغة والحجج البارعة والنصوص الواضحة والمراجع
المعتبرة. وما عطل عقولنا عن الإبداع والإنتاج سوى التقليد
الأعمى، وما تردت عقولنا إلا بالتبعية والذيلية الرخيصة. ولن
نتبوأ مكاننا الحتمي إلا بالتححرر على أسس العلم الأصيل
المجرد، ونتخلص من التلقين الباهت والحفظ الذي لا
ينطوي على فهم قط .

لقد أراد الأيوبيون غزو السودان وحاولوا، فلما رأوا
أن الخسائر لا تعادل الربح، انصرفوا عنه بمعاهدة يدفع
بموجبها ملك النوبة «البقط» وهو الجزية سنويا، وكانوا
يماطلون في ذلك السنوات والأيوبيون مشغولون بالحروب
الصليبية، وملوك النوبة مشغولون بالمؤامرات مع الصليبيين
ضد الأيوبيين، ودعاة الشيعة جادون في نشر مذهبهم بين
العامة والدهماء. وأصبح السودان محصورًا لا يخرج منه أحد
إلا خلسة ولا يدخل عليه أحد إلا بإذن الأيوبيين ومن بعدهم
المماليك. والسودان في هذه الفترة كان يتحول في سرعة هائلة
من المسيحية إلى مذهب الشيعة. والعرب الرحل في الصعيد
المصري تحولوا إلى السودان عند مضايقة المماليك لهم،
وقبيلة هلاله في الجزيرة العربية وبعض القبائل في تهامة
هاجروا من المجاعة والجفاف إلى السودان، وقامت في

السودان الإمارات العربية، إما على مذهب الشيعة، وإما على الجهل المطبق بالإسلام الصحيح. وتحولت لغة البلاد من اللغة النوبية إلى اللغة العربية، فأصبحت الغالبة إلا في بعض المناطق التي تتحدث باللغة العربية محرفة مع لغتها حيث احتفظت بها إلى اليوم جنباً إلى جنب مع العربية المحرفة. وفشى الإسلام في كل السودان ما عدا الجنوب الوثني وبعضاً من جبال النوبة الوثنية حتى اليوم، حيث وجد المبشرون المسيحيون في هذه الأماكن مترعاً خصباً لهم في العهد التركي المصري، وزاد بعد المهديّة في عصر الاستعمار، ووجدوا الحماية والعناية والدعم في عهد ما بعد حل مشكلة الجنوب.

قيل إن الصوفية دخلت السودان على يد الشناقيط الذين يمرون عابرين إلى أداء الحج أو الهجرة إلى البلاد المقدسة بالسودان، وانتشر على أيديهم في شمال السودان في القرن التاسع الهجري التصوف على طريقة الشاذلي. وإثبات ذلك من الناحية التاريخية المدعومة بالمراجع المعترف بها ضرب من المحال كقبضة الهواء واحتواء الماء باليد. والأمر المؤكد أن التصوف دخل السودان في أوائل النصف الثاني من القرن العاشر الهجري على يد الشيخ تاج الدين البهاري الذي قدم من بغداد ماراً ببلاد الشام في مصر ثم دخل السودان ونشر

الطريقة القادرية، وبعد أن أعد أتباعه أجازهم بالمشيخة وأمرهم بنشرها في سائر بلاد السودان، فانتشروا يبشرون بها حتى غزت كل أنحاء السودان ما عدا الجنوب وبلاد النوبة «جبال النوبة في جنوب كردفان».

ثم قدم الشيخ التلمساني المغربي على الشيخ محمد ابن عيسى سوار الذهب الأنصاري نسبة للأنصار «أي الخزرج بالذات لا الأوس» كما يدل على ذلك نسبهم الذي يحتفظون به حتى اليوم. وسلكه طريق القوم على طريقة الشاذلي وعلمه علم الكلام وعلوم القرآن من تجويد وروايات. ويزعمون كذبا أن الشيخ إدريس «أبو فرقة» من قرية العيلفون ظهرت عليه الولاية من غير شيخ قدم عليه وقد أخذ في التصرف من الرسول ﷺ مباشرة. وقيل إنه أخذ طريق القوم من رجل من المغرب قدم عليه بالخطوة اسمه عبد الكافي، فلما اشتهر الشيخ إدريس بأنه أخذ الطريق من الرسول مباشرة ظهر بعده بقليل الشيخ حسن ولد حسونة زاعما أنه صار وليا وأخذ طريق القوم بمدد من الرسول مباشرة.

وهكذا انتشر التصوف في السودان ووجد أرضا خصبة قابلة له لأن التصوف والتشيع اسمان لمسمى واحد لا يختلفان إلا في الشكليات دون الجوهر العقائدي. وكان

للقادرية السابق والكثرة حتى دخل الأتراك والمصريون السودان قبل المهديّة فجاء المصريون بطرق كثيرة نثرت على أيدي مصريين مثل: الأحمدية البدوية، والبرهانية، والأحمدية الإدريسية التي اشتقت منها الرشيدية والندراوية والإسماعيلية والختمية، ثم وفدت السمانية من المدينة المنورة، ثم بعد فترة جاءت بعد المهديّة من مصر وعلى أيدي مصريين الرفاعية والنقشبندية والعزائمية نسبة للشيخ ماضي أبو العزائم، الذي مكث بالسودان فترة ينشر طريقته هذه، ثم وفدت التيجانية على أيدي المغاربة والشناقيط والفلاتة وقد تميزت كل طريقة بأذكار خاصة مصحوبة بالطبول والرايات، وبعضها لا طبول ولا رايات، وبعضها اكتفى بالرايات دون الطبول، وبعضها اكتفى بالذكر السري في جماعات، وبعضها بالذكر الجماعي جهرا، وبعضها جمع بين السر والجهر والاجتماع، كل ذلك مصحوبا بالبيعة وطاعة الشيخ وعدم اعتراض المرید، وتلقينه أذكارًا يعمل بها في نفسه صباحا ومساء.

﴿ كل فرقة من هؤلاء تدعي أنها على الحق، وأن غيرها من الفرق إما على الباطل أو دونها في المرتبة عند الله. واتخذت كل فرقة عيدًا لمشايعها تذبج فيه الذبائح وتجتمع فيه كل الفرق، وتتلى المناقب في كرامات الشيوخ ومن يطلع

على طبقات ود ضيف الله يندى وجهه من الخجل لكثير لما سمي بالكرامة، وادعوا أن لهم قدرة على شفاء الأمراض وعلاج الجنون وإعطاء العقيم أو العقيمة الذرية، وادعوا أن لهم اتصالات بالرسول ﷺ منامية، يأخذون منه ويتلقون الأوامر، وأن لهم اجتماعات به صورية أي بصورته الحقيقية يقظة لا مناما، وأن لهم حضرتين: الأولى الحضرة النبوية والثانية الحضرة القدسية، وأن في الحضرتين تعرض لهم كل صغيرة وكبيرة تقع في كل الكون، وأنهم ينظمون الكون في الحضرتين، وأن لهم الباع الطويل في محو شقاوة الشقي وفي إشفاء المعترض إن كان قد كتب سعيداً من قبل، وأن المرید ينتقل في خدمتهم وطاعتهم على حسب إخلاصه في الدرجات حتى ينكشف له اللوح المحفوظ ويرى كل شيء فيه، وأن الحواجز الحسية تزول من بصره وبصيرته فيرى وهو بالسودان الكعبة والمسجد النبوي وكل العالم، وأنه ينتقل بطريق الخطوة حيث تطوى له الأبعاد إلى أي مكان شاء، وأن في إمكانه أن يمرض من يشاء إما عقاباً على اعتراضه وإما امتحاناً له ليرقيه إلى درجة أعلى، إلى غير ذلك من الهوس الذي يعارض القرآن المحكم والحديث الصحيح .

ما يقال عن مشايخ الطرق الصوفية

✽ هناك قول مشترك بين كل الفرق الصوفية متفق عليه لم يشذَّ منه أحد منهم إطلاقاً: وهو أنهم أخذوا هذه الطرق بأورادها وأذكارها وطقوسها وأساليبها ونظمها وآدابها وأحكامها وأوامرها ونواهيها بسند متصل إلى النبي ﷺ، كأسانيد الحديث النبوي الذي دونه الحفاظ في كتبهم عن الرسول ﷺ غير أن أسانيد الحديث خضعت للنقد الصارم من الحفاظ حتى غربلوا غربله ناعمة دقيقة، فبار الصحيح والضعيف والموضوع بجهد يأخذ بمجامع الأبواب، ويرغم الباحث المتعمق على أن يحني هامته إجلالاً لهم واحتراماً لأعمالهم وتقديرًا للإبداع الرائع العظيم.

﴿ أما هذه الأسانيد التي أخذت عن الأحياء، أو أخذت في الرؤية المنامية أو أخذت بالاجتماع مع النبي ﷺ في حال اليقظة بعد قرون من موته عليه الصلاة والسلام، لم يتعرض لها حفاظ الحديث حتى نعلم صحتها أو ضعفها أو وضعها على الرسول ﷺ، وليس لها أثر في كتب الحديث إطلاقاً، ولم يتناولها واحد من علماء مصطلح الحديث إطلاقاً، ولم تر

حتى في كتب السيرة التي يتوقف العلماء عن الخوض فيها، ولا تعتبر عندهم حجة، لأنها لا سند لها فيحكم به عليها، غير أن لي ملاحظات أذكرها فيما يلي والله المستعان :

١- في كثير من الأسانيد يذكر الخضر في السند والزعم بأنه حي يعتمد على إسرائيليات لا قيمة لها قط، والصحيح بعد التحقيق المعتمد على الكتاب والسنة الصحيحة المطهرة أنه مات ويكفي قوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

فهو الدليل القاطع على موته وقد وقفت على رسالة في موت الخضر، للشيخ الأمين محمد زين الناسخ، هي تحت الطبع الآن، قد أوفى فيها الموضوع حقه بالأدلة الشافية الكافية التي لا يرد لها إلا المعاند الجهول.

٢- أغلبية هذه الأسانيد جاءت عن طريق الرؤية المنامية، ونحن لا ننكر رؤية الرسول ﷺ، بل نعتقد أن رؤيته ﷺ دليل المحبة الصافية، وهي إكرام من الله لمن أنعم الله بها عليه، ولكن دين الله قد تم وكمل وليس للرؤية إن احتوت على أمر أو نهى أن تنسخ شيئاً من شرع الله بعد وفاة الرسول ﷺ. وتحضرنى هنا قصة تلقي ضوءاً على ما ذكرناه أختصرها فيما يلي، وهي مأخوذة من شرح الجرداني على الأربعين النبوية .

رأى أحد الناس الرسول ﷺ يأمره أن يذهب إلى رجل آخر يقول له: احضر في المكان الفلاني تجد كنزاً خذه لا تخرج منه الخمس لبيت المال، وذهب الرجل ووجد الكنز واستفتى العلماء فأفتوه أن يخرج الخمس لأن الرؤية مع صدقها لا تنسخ حكماً شرعياً ألبتة .

٣- وفي بعض الأسانيد تبني هذه الأسانيد على اجتماع في حال اليقظة بالنبي ﷺ، وهذا الاجتماع في حال اليقظة لم يرد عن صحابي واحد أو تابعي واحد أو تابع التابعي وهم خير القرون، كما ورد بذلك النص الصحيح^(١)، فهل هذه خاصية لمن جاء بعدهم؟! ونحن لا نرى نصاً على ذلك من كتاب الله ولا من السنة المطهرة الصحيحة، ولا حتى من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم وهم أهل القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية من الصادق المعصوم ﷺ. وأمر كهذا تبني عليه عبادة واعتقاد لا بد أن يبنى على دليل قاطع لا يتطرق إليه

(١) وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» الحديث. أخرجه البخاري في أكثر من موضع من صحيحه، فقد أخرجه من حديث عمران بن حصين في كتاب أصحاب النبي ﷺ ٤/١٨٩، والشهادات ٣/١٥١، والرقاق ٧/١٧٣. وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٤/١٩٦٣ ح (٢٥٣٣).

الاحتمال، فالدليل إذا طرقة الاحتمال سقط به الاستدلال .

٤- كل الأسانيد تحتوى على أسماء أهل بيت النبوة إما الإمام الحسين عن أبيه عن جده وإما الإمام الحسن عن أبيه عن جده. والطابع الشيعي واضح في ذلك لا يحتاج إلى بحث طويل.

٥- وبعض الأسانيد تقتصر على الشيخ المؤسس للطريقة، وأنه تلقى المدد وأخذ ذلك من الرسول ﷺ مباشرة، وبين هذا الشيخ وبين الرسول ﷺ قرون متعددة، فلو صح هذا السند فإن فيه انقطاعاً يجعله من باب المعضل الذي سقط من سنده أكثر من واحد، وهو سند مردود عند أهل الحديث .

ومن هذه الملاحظات المتقدمة، وبعد التأمل المتجرد من الهوى يسقط السند الذي بنيت عليه الصوفية. وإذا سقط السند انهارت النحلة من أساسها بقطع النظر عن مناقشة الخرافات والبدع والانحرافات في الاعتقاد التي تزخر بها الطرق على اختلافها، وتعج بها عجيج السوق المزدهم، وتنفر منها الطباع السليمة والفطرة الخالية من الشوائب.

وهناك أقوال تقسم أهل الطريق إلى قسمين: القسم الأعلى والقسم الأدنى، ويتدئ القسم الأعلى بالغوث الأقطاب ثم أهل الدائرة الخ .. ويتدئ الأدنى بالمريد ثم

السالك ثم الواصل .. إلخ، ولم يرد نصٌّ شرعيّ إطلاقاً لهذا التقسيم ولا يوجد له أثر في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ، ولا في أقوال المفسرين للقرآن أو السنة، ولا في آراء الأئمة ولا جاء عن أهل القرون الثلاثة. فمن أين جاء هذا التنظيم الذي يشبه الأنظمة السياسية الوضعية؟ والملاحظ أنه يشبه الأنظمة السرية ذات الأهداف المشبوهة التي لا تعيش إلا في الظلام.

ومن أقوالهم التي تنسب إلى المشايخ وقد لا توجد إطلاقاً فيما ألفه المشايخ من كتب، قول القادرية: إن الشيخ عبد القادر الجيلاني قال: رجلي على رقبة كل وليّ. وهذا القول خطير جداً لأن الرسل والأنبياء والشهداء والصالحين كل هؤلاء من أولياء الله. وقوله: كل وليّ تشملُ الجميع؛ لأن «كل» من ألفاظ العموم ولا تخرج من عمومها إلا المستثنى، وهذا القول عام لا استثناء فيه. وإذا قلنا: إن واقع الحال يدل أنه لم يرد إلا أهل زمانه ومن يأتي بعدهم، وكان هذا التخريج سليماً يمليه حسن الظن فإن وضع الرجل على رقاب المؤمنين والأولياء فيه إذلال لهم، وقد كرم الله الإنسان عامة ولا ينبغي لأحد أن يذله^(١).

﴿ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْبِ
وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ
خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿ وحتى الحيوان فقد أمر الرسول ﷺ أن لا يضرب في وجهه، وأن لا يوسم في وجهه، والمنع وارد في النهي عن ضرب الوجه، وهناك بعض من حديث صحيح يقول فيه الرسول ﷺ: «حسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم»، فأى احتقار أكبر من أن تضع رجلك على رقبة بعد أن وصفته بأنه ولي الله .

﴿ ثم إن هذا القول يعارض ما روي عن الشيخ عبد القادر في قوله: «دخلت من باب العلم فوجدته مزدحمًا ودخلت من باب العبادة فوجدته مزدحمًا، ودخلت من باب التواضع فوجدته خاليًا فولجت منه». ووضع الرجل على رقاب الأولياء كبرياء لا تليق بمسلم يخشى الله ويتقيه ويتكبر على عباد الله، وفي رأيي أن هذا قول أملاه الجهل بالدين وهوس وضع على الشيخ لا سند له، وإنما يحاسب الشيخ بما

(١) أخرجه مسلم في أثناء حديث في كتاب البر ٤/١٩٨٦ ح (٢٥٦٤).
وأخرجه ابن ماجه في الزهد ٢/١٤٠٩ ح (٤٢١٣). وأخرجه الإمام
أحمد في المسند من حديث واثلة بن الأسقع ٣/٤٩١.

ألفه لا بما وضع عليه، وما طرد إبليس من الجنة إلا لأنه تكبر
كما جاء في القرآن .

أُأَيُّ وَيَقُولُونَ: إِنَّ السَّيِّدَ أَحْمَدَ بْنَ إِدْرِيسَ قَالَ: «إِذَا نَادَانِي
مَرِيدِي وَهُوَ بِالْمَغْرِبِ وَأَنَا بِالْمَشْرِقِ أَوْ عِنْدَ جَبَلٍ قَافٍ لِأَجْبَتِهِ،
وَلَوْ كَانَ صَادِقًا لَسَمِعَ رَدَّ الْجَوَابِ بِلَيْكٍ». كَمَا يَقُولُونَ: إِنَّ
السَّيِّدَ مُحَمَّدَ عَثْمَانَ الْمِيرْغَنِي قَالَ: «إِذَا كُنْتُ فِي هَمٍّ وَغَمٍّ
فَنَادَانِي بِ«يَا مَرْغَنِي» أَنْجِيكَ مِنْ كُلِّ شِدَّةٍ». فَهَلْ قَالَ هَذَا
الشَّيْخَانِ ذَلِكَ أَمْ هُوَ وَضَعَهُ عَلَيْهِمَا؟ وَمَعْلُومٌ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ
قَالَ: أَرْكَانَ الشَّرْكِ خَمْسَةٌ، أَوْ قَالَ: الطَّوَاغِيَتِ خَمْسَةٌ وَأَوْلَهُمْ
مَنْ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَثَانِيهِمْ مَنْ عَبَدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَثَالِثُهُمْ
مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ، وَرَابِعُهُمْ مَنْ تَحَاكَمَ إِلَى الطَّوَاغُوتِ وَهُوَ
الْحَكْمَ بِغَيْرِ شَرَعِ اللَّهِ، وَخَامِسُهُمْ مَنْ شَرَعَ لِلنَّاسِ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿أَتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ
أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة: ٣١] .

ولما سمع عدي بن حاتم وكان نصرانيًّا فأسلم جاء إلى
الرسول ﷺ فقال: ما كنا نعبدكم من دون الله يا رسول الله،
فرد عليه الرسول ﷺ قائلاً: ما معناه. ألم يكونوا يحرمون
عليكم الشيء فتحرمونه؟ قال: بلى!! ألم يكونوا يحلون لكم

الشيء فتحلونه؟ قال: بلى قال: «هذه عبادتهم»^(١). والنداء لا يكون إلا لله، فكيف يقول مسلم: نادوني أجيب دعاءكم وأكشف كربكم!! قد يكون هذا القول بهتاناً على الشيخين ولو صحَّ لكان خروجاً عن شرع الله.

ومن أقوالهم: من لا شيخ له شيخه الشيطان. إذا كان المقصود به الشيخ الذي يعلمك شرع الله فهذا صحيح، أما إذا كان كما هو مشاهد الآن المقصود منه أن تكون تابعاً لشيخ من المتصوفة لا تعترض عليه حتى ولو ارتكب إثماً فهذا باطل، وهو من وحي الشيطان لا من وحي الرحمن؛ لأن الله أمرنا بالتعقل والتفكير والتدبر ونادانا يا أولي الأبواب ويا أولي النهى، وأمرنا أن نستعمل عقولنا لا أن نعطلها ونفكر بعقول الآخرين، والدليل القاطع أنهم يريدون التبعية والذيلية وعدم الاعتراض، والمقصود شيخ الطريقة قصيدة أبي مدين الغوث فهي الأساس لكل مرید عندهم، وهذا هو الذي عطّل العقول فخيم عليها الهوان وانعدم الإنتاج والابتكار والإبداع وصرنا إلى هذا الوضع المخجل في مؤخرة الأمم.

(١) هذا معنى حديث أخرجه الإمام الترمذي في سننه بسند عن عدي بن حاتم ٤/٣٤٢، وقال عقبه: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب. وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث.

﴿﴾ ويقولون: إن السيد أحمد التجاني قال: إن صلاة الفاتح تعدل عدد كذا ختمة من القرآن الكريم، ولو صحَّ هذا وأظنه كما ذكر الشيخ عبد الرحمن الإفريقي في الرد على التجانية صحيحًا، وليراجع القارئ هذا الرد الذي أشرنا إليه، وهنارد آخر حديث أقوى من الأول وفيه الحجج الدامغة التي لا تقبل الجدل والعناد بحال من الأحوال، وأنا لا أذكر اسمه الآن وقد بحثت عنه في مكتبتي المتواضعة فلم أعره عليه، ولعل بعضهم استعاره ولم يرده كما هو الحال دائمًا، وأنا كثير النسيان وهم يعتمدون على أن لدي من النسخ كثيرًا، ولا يعلمون أنني لا أبقى لنفسى سوى نسخة واحدة. أقول لو صحَّ هذا لكان شرعًا مخالفًا لشرع الله، فإن أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى الله إنما هو تلاوة كتابه الذي يثاب المؤمن بكل حرف منه بعشر حسنات، فكيف أن تكون هناك صيغة من صيغ الصلاة على النبي ﷺ لم ترد عنه لا في حديث صحيح ولا ضعيف تعدل قراءة أصغر سورة من القرآن الكريم، اللهم إلا أن يكون هذا هوسًا من قوم مازجت عقولهم «الهستيريا»؛ لأن كل من منحرف عن شرع الله لا بد أن يكون للشيطان عليه سلطان يوحى إليه زخارف القول فيتردى في هاوية الضلال .

والأقوال كثيرة وعجيبة ومحنة وليس مكان حصرها كلها هذه العجالة المختصرة جدًا التي لم تكن مؤلفًا علميًا يدحض الأباطيل بالبراهين وإنما كان الغرض منها لفت أنظار المسلمين إلى مواطن الضلال لعلهم يرجعون إليه ويبحثون ليصلوا إلى الحقائق المذهلة بأنفسهم، أو لعل غيورًا على دينه يتناول المواضيع كلها بإفاضة فيخدم المسلمين بذلك خدمة تصرفهم عن الباطل الأغبر؛ حتى لا تدمرهم العقائد الفاسدة في الدنيا وتخلدهم في النار في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

الحجج واقع التصوف اليوم

✽ إن واقع التصوف اليوم هو ميراث الأبناء عن الأجداد، ولا يشترط في الوارث علمًا ولا عملًا ولا خلقًا ولا زهدًا ولا عفةً يد أو لسان، وإنما يرث الأبناء آباءهم ويجلسون في مناصبهم، تجبى إليهم الأموال باسم الزكاة وهم ليسوا بمستحقين لها، أو الهدايا وتارة تكون جبرية، والنذور لأمواتهم، وثمر الدعاء والرقية والحجاب والبخرات والخيرة والمحايات والتنبؤ بالغيبيات، ودفع المضار عن الأنفس والمال والأهل، وضريبة التبعية على الماشية والتجارة والزراعة، وثمر الذرية التي يعطونها لمن حرم منها عقيمًا كان أو عقيمة، وثمر شفاء المرضى بالجنون وغيره.

وأسعار ما تقدم شيء معروف مسلم به لا اختلاف فيه، ولكن تتفاضل الأسعار كما تتفاضل الأسعار عند الأطباء وكما يدفع المريض عند مقابلة الطبيب، ثم يكون بعد الكشف عليه ثمن العلاج، إن كان بإجراء جراحة خفيفة أو صعبة خطيرة أو غير ذلك، فإن أبناء المشايخ اليوم لهم مثل ذلك والفرق في التسمية فقط، فإنهم يسمون ما يعطون أو لا

«بالبياض»، ثم يتفق على ثمن العلاج والحجاب بعد إجراء الفحص وفتح الكتاب، «وهذه الكتب التي تفتح إنما هي كتب سحر تعج بالأختام والطلاسم والأسماء الأعجمية لمنفعة أو مضرة، مثل الديرابي، وشمس المعارف الكبرى، وشمس المعارف الصغرى .. الخ».

فالتصوف أصبح وراثته وأصبح مهنة تدر المال، ويعيش اليوم المتصوفة في ترف بالغ في المأكل والمشرب والملبس والمسكن والمركب وامتلاك المزارع والمنازل والدكاكين والعمارات إلى غير ذلك مما لا يستحسن ذكره، والليبي يفهم بالإشارة، والغالب من مشايخ اليوم جهلاء لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، ولا من الدين إلا اسمه ومن العجيب الغريب حقاً أن بعض المثقفين ثقافة غربية مدنية لا صلة لها بالإسلام من قريب أو بعيد يتبعون هؤلاء الجهلاء ويسيروا في ركابهم بحماس منقطع النظر يدعو للشفقة بهم والحزن عليهم، غير أنك لو تفحصت الأمور في تأني ودرست الموقف في بطاء ثم تابعت سلوك بعضهم لوجدت بين الرماد وميض نار، وصار الأتباع عندك ثلاثة أقسام: رعاع جهلاء قد يعذرون بالجهل إن كان الجهل عذراً مقبولاً في شرع الله، ومثقفون يتمنون إلى «المحفل الماسوني» يعملون بتخطيط

محكم لتدمير الإسلام حتى لا تقوم له قائمة تضر بمصالح اليهود والغربيين والشيوعيين، وفي تخطيط حكماء بني صهيون تجد الجواب الشافي، ومثقفون ينقسمون على قسمين قسم يتبع الأتباع الكبار من أجل المناصب التي يعملون من أجلها ويملك هؤلاء الرؤساء وضعهم فيها إذا رضوا عنهم، وقسم أي نخبة من المثقفين ثقافة يحترمها ويؤمن بها، وهو خالي القلب والعقل من فهم الإسلام، فيسير على دربهم ويتسم خطاهم مقلداً بحسن نية، ولا أدري إن كان يعذر أمثال هؤلاء المخدوعين في شرع الله أم لا، وعلى كل حال الأمر مفوض فيهم إلى الله وحده.

قد يقول بعض الناس: إنك ظلمت شيوخ اليوم فليسوا كلهم على هذا المنوال، وإن صدق على بعضهم، بل ربما كان بعضهم في خدمة الاستعمار يوم كان الاستعمار مخيمًا على هذه البلاد، وقد كوفئ بعضهم من الإنجليز بأن أعطوا لقب أمير وحملوا على صدورهم نيشان القديسين ميخائيل وجورج، وهو صليب ذهبي؛ لأنهم قدموا للإمبراطورية أجل خدمة، وأنا أقول ردًا على هؤلاء الطيبين: لن أدخل معكم في جدل عقيم، ولكني أنقل لكم بأمانة رأي إمام من أئمة الصوفية ما دمتم تؤمنون بقوله ولا تعترضون عليه.

قال الشيخ عبد العزيز الدبائع في كتابه «الذهب الإبريز»: «قد يكون أبناء الصالحين في آخر الزمان أشر الناس لأنهم تناولوا ما كان ساقطاً في أعين آبائهم من المال والجاه، ولأن إبليس اللعين أراد أن يشفي غيظه فيهم لأن آباءهم أعموا طرقه وسدوا مسالكه». ولن أعلق على هذا القول بحرف واحد.

|| عاش مشايخ اليوم في المتصوفة عالية على المجتمع كالطفيليات يعيشون من عرق الدهماء والغوغاء والجهلاء ولا يعلمون شيئاً، بل يستعمرون العقول وهو أسوأ من استعمار الأجسام وأخطر على الأمة منه، ولقد استعاذ الرسول ﷺ من الكسل^(١) ضمن دعوة من دعائه المأثور، ولقد رأت عائشة رجلاً يصلي في المسجد ولا يبارحه فقالت: ما هذا؟ فقيل لها: أحد القراء، فقالت: رحم الله ابن الخطاب كان من القراء وكان إذا تحدث أسمع، وإذا ضرب أوجع، وإذا مشى اهتزت الأرض من تحت قدميه، ورأى عمر رضي الله عنه رجلاً

(١) وردت استعاذته ﷺ من الكسل في أكثر من حديث منها: حديث أنس الذي أخرجه البخاري في الدعوات ٧/١٥٩، ومسلم في الذكر والدعاء ٤/٢٠٨٠، وحديث عائشة الذي أخرجه ابن ماجه في سننه كتاب الدعاء ١٢٦٢/٢ ح (٣٨٣٨).

يصلي في المسجد ويكثر من الصلاة ولا يبارح المسجد فقال: من هذا؟ فقيل له: أحد القراء، فقال: ومن ينفق عليه؟ قيل: أخوه. فقال: أخوه خير منه. ثم أتاه ووقف حتى سلم من صلاته وجعل يضربه بالدرة ويقول: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة. إن وجود طبقة من الناس متعطله عن العمل وتتخذ من الدين مهنة للربح والتجارة كما كان يفعل الرهبان والقسيسون أمر لا يقره شرع الله بحال من الأحوال. ونحن اليوم نجزم قطعًا بأن مشايخ الطرق على امتداد قطرنا كله يعيشون متبطلين بلا عمل، ويرتزون من عرق الآخرين في ترف ورفاهية فأين العفة؟ وأين الزهد المزعوم؟ وأين التقيد بشرع الله المحكم؟

لمر القباب

✽ إن القباب بدعة أحدثها الشيعة فهم أول من بنى القباب ولم تكن قط قبلهم وما سبقوا إليها إطلاقاً، وإني لأتحدى باحثاً عالمًا ينقل نقلًا صحيحًا من مصادر التاريخ أن القباب قام بنائها أحد قبل الشيعة. إنها قطعًا من اختراعات الشيعة، وهذا أمر لا يجهله باحث مدقق مطلع على أمهات المراجع في التاريخ الإسلامي على اختلاف المراجع، وسموها المشاهد وجعلوها طقوسًا خاصة في مؤلفات عجيبة. ووقع في يدي مؤلف من هذه المؤلفات في زيارة مدينة مشهد بإيران حيث دفن الإمام الرضا. كيف تدخل وماذا تقول وكيف تخرج وماذا عليك إلخ...

وهنا وإن لم توجد كتب خاصة بزيارة القباب إلا أن الأمور معروفة مشهورة بين الناس لا تحتاج إلى قراءة أو كتابة؛ لأن الزائر يدخل المقام أو المشهد المزار أو القبة أو البنية حافيًا، ويطوف في الغالب الأعمّ حول القبر، ومعلوم أن الطواف عبادة لا تكون إلا حول البيت الحرام فقط. ثم يقف بأدب ويسلم على الميت، ويذكر حاجته ويطلب قضاءها، ثم

يبرك على ركبتيه عند رأس التابوت أو الكساء ويأخذ في التراب وهو في الغالب رمل يجلب من أجل ذلك، يمسح به وجهه وما شاء من جسمه، ثم يأخذ بعضه معه بركة لأبنائه ومنزله وماله. وقد يوضع عند بعضهم في الماء ويشرب، ثم إن من القواعد المعروفة أن زيارة النساء يوم الاثنين، غير أن بعض الرجال يشاركون النساء في ذلك. وزيارة الرجال يوم الجمعة حيث تقام الأذكار الجهرية بتحريف أسماء الله على نقرات الطبول في أغلب القباب، وإنهم بعد نهاية الذكر والمدائح التي تزدهر بالمبالغات والتغالي يطوفون حول القبة من الخارج وينادون الشيخ.

|| وإن النساء على الرغم من تخصيص يوم لهن فإنهن يحضرن يوم الجمعة في أحسن زينة والعطر الشذي يفوح منهن، وهناك الشباب الماجن ينتظر على العربات الفارهة وغير الفارهة يقود بعضهم إلى مواطن الغناء والفجور، وحتى اللواتي لا يذهبن إلى المواخير يختلطن بالرجال بشكل مُزِرٍ لا يرضاه شرع الله. وفي كل قبة أو بنية يوضع صندوق للنذور يدفع كل واحد على حسب نذره الذي نذره.

|| وفي الختام يقوم الشيخ خليفة الميت بفتح الصندوق ويأخذ ما فيه من مال وفير، وهذا العمل من باب أكل أموال

الناس بالباطل، فضلا عن أن النذر عبادة والعبادة لا تكون إلا لله، ومن صرفها لغيره فقد أشرك معه فيما هو خاصٌّ به وإنني أسجل هنا أن كثيرا من الموحدين عندما يرون هذه الأشياء يرفعون أصواتهم بالدعاء لله الواحد القهار أن يقيض لهذه الأمة رجلاً مثل عبد العزيز العادل، فيهدم كل هذه القباب، ويقضي على الفساد، ويحطم الشرك، ويزيل الاحتيال والنصب، وتحضرنى هنا أبيات للصنعاني في كتابه «تطهير الاعتقاد» يقول رَحِمَهُ اللهُ:

أعادوا بها معنى سواع مثله	يغوث وود بئس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد	كما هتف المضطر بالصمد
كم نحرُوا في سوحها من	أهلت لغير الله جهراً على عمد
وكم طائف حول القبور	ويستلم الأركان منهن باليد

والكلام هنا يطول، ولعل فيما أشرنا إليه يكفي والدليل العملي الواقعي اليوم أقوى من الكلام والوصف النظري، فعلى القارئ أن يقف بنفسه على هذه القباب والبنايا ويحكم بعد ذلك، فإن دلالة الفعل أقوى من دلالة القول والله المستعان .

تفرق المسلمين

❁ لا شك أن واقعنا اليوم يدل على الشتات، وحالنا يعبر في وضوح عن الانقسام، ووحدة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها صارت في سجلات التاريخ السحيق، وحلَّ التفرق المصحوب بالبغضاء والتنافر والتنابد والخصام على مجتمعنا بوجهه الكالح المقيت، وبتنا كالأيتام في مائدة اللثام. إن الله وحده سمانا المسلمين، والرسول ﷺ سمانا المسلمين، وإبراهيم خليل الرحمن ﷺ الموحى إليه من عند الله سمانا المسلمين، وجاء القرآن العظيم لنا بهذا الاسم العظيم. فنحن المسلمون ولا شيء غير ذلك إطلاقاً، فمن دعا إلى فرقة ضمها كرقعة مع كلمة المسلمين، فقد فرق الشمل وحطم الوحدة وقضى على الاجتماع، وليس من العقل الرجيح ولا الفهم الصحيح ولا القول الحق العادل أن نزيد على تسمية الله ورسوله وخليله اسمًا آخر يدل على فرقة وحزب، والله تعالى يقول: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

❁ والرسول ﷺ يقول: «افترقت بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في

النار إلا ما عليه أنا وأصحابي»^(١). فإن لم يكن للصوفية مأخذٌ
قط إلا أنها فرقت المسلمين وأضعفتهم لكفاها إثما كبيراً.
قال شاعر حكيم:

كونوا جميعاً يا بني إذا اعترى خطب ولا تتفرقوا أفراداً
تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا وإذا افرقن تكسرت أحاداً

بلاغات في شرح

(١) أخرجه الترمذي في موضعين: في الإيمان فقد أخرجه بمعناه من حديث
عبد الله بن عمرو وفي أوله زيادة ٤/ ١٣٥ ح (٢٧٧٩). وقال عقبه: هذا
حديث حسن غريب مُفسَّر لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وأخرج بعضه من
حديث أبي هريرة بنحوه ٤/ ١٣٤ ح (٢٧٧٨) وقال: حديث أبي هريرة
حديث حسن صحيح. وأخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن ٢/ ١٣٢٢
ح (٣٩٩٣) من حديث أنس وفيه (وهي الجماعة). وأخرجه الإمام
أحمد في المسند بمعناه من حديث أنس ٣/ ١٢٠.

مقولة خاطئة

✽ يقولون: من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق. وهذا كلام خطير إذا وزن بميزان شرع الله فالفقرة الأولى تدل على أن الفقه وهو الفهم الصحيح لكتاب الله وسنة رسوله كما قال رسول الله ﷺ: «من أراد الله به خيراً فقهه في الدين»^(١). والفقيه هو العالم الفاهم للتنزيل والله يقول: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فكيف يكون الفقه إذن بلا تصوف سبيلاً إلى الفسق؟ ألا يكون هذا القول معارضا لشرع الله؟ أما الفقرة الثانية وهي الزندقة لمن تصوف من غير علم، فمن العجيب المضحك المبكي في آنٍ واحد أن يرويها هؤلاء الجهلاء أو أنصاف المتعلمين، وهم وأتباعهم من الرعاع الجهلاء يقولون في غير حياء ولا خجل: نحن المتصوفة، وبهذه الفقرة الصريحة يحكمون على أنفسهم بالزندقة، ونحن لا نعارضهم في حكمهم هذا لأن المكلف يؤخذ بإقرار لسانه. والله المستعان!

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم ١/ ٢٥-٢٦. وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة ٢/ ٧١٨ ح (١٠٣٧).

خاتمة

❁ هذه العبارات التي سقناها ليست بحثًا علميًا مدعمًا بالبراهين ورسالة وافية تقصت الموضوع في دقة الكاتب المستبين، وإنما هي عجالة مختصرة تسوق إلى البحث المركز المبني على المراجع الصحيحة والأدلة الناصعة، وربما لو طالت بنا الحياة فترة أن نكتب بإسهاب مبين، أو لعل حادبًا على الإسلام غيورًا على الدين يتناول الموضوع من كل جوانبه، ونكون قد دللنا على الحق والخير، والبدال على الخير كفاعله. ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

❁ اللهم أرنا الحق حقًا فتبعه، وأرنا الباطل باطلًا فتجنبه، ولا تكلنا إلى نفوسنا وشهواتنا ووسوسة الشيطان طرفة عين، يا أرحم الراحمين .

محمد الفاضل التقلاوي

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	كلمة معالي الشيخ صالح بن فوزان الفوزان
٤	تقديم
٥	المقدمة
٧	التصوف
١٣	كيف ومتى دخل التصوف في بلاد النوبة
٢٦	ما يقال عن مشايخ الطرق الصوفية
٣٦	واقع التصوف اليوم
٤١	القباب
٤٤	تفرق المسلمين
٤٦	مقولة خاطئة
٤٧	خاتمة
٤٨	الفهرس